سِلسِلة
حِكايات
السَّمَر
١٣

زكريّا كايا

الوفاءُ كنزُ الصَّداقة



دارُ الجيل
بيروت - القاهِرة

سِلسِلة
حِكايات
السَّمَر

(١٣)

الوفاءُ كنْزُ الصّداقة

تأليف ورسوم
زكريّا كَايَا

دَارُ الجيل
بيروت - القاهِرة

الوفاءُ كنزُ الصّداقة

في قديمِ الزمانِ وسَالفِ العَصْرِ والأوانِ، أرسَلَ أميرُ بُخَارَى السَّامَانيُّ هديّةً إلى الخَليفةِ المَأمُونِ مَملوكاً تركيّاً هو مِن سَبْيِ فَرْغَانَة، وَقُدِّرَ أن يُولَدَ لهذا المَمْلُوكِ فتىً، نشأ نَشأَةَ أبناءِ المُلُوكِ عِلماً وأدباً وَسِياسَةً، وعُرِفَ بِاسْمِ أَحْمَدَ بن طُولُون، وقَادَهُ قدَرُه وهو شَابٌّ لأن يُعَيَنَ نَائباً لِوَالي مِصرَ. ولكنَّه لِعُلُوِّ هِمَّتِه وشَجَاعَتِهِ وإقدَامه، استَقَلَّ بها وفرَضَ سُلطانَه عليها وأَخَذَ البَيعَةَ لنفسِه، بعدَ أن عزَّز دَولتَه الفتيَّةَ بنظامٍ عَسكريٍّ **صارِم**؛ وكَوَّنَ جَيشاً قُوَامُه مئةُ ألفِ مُحَارِبٍ، جَعَلَ نُوَاتَه الصَّدَامِيَّةَ حَرَساً خاصًّا من التركِ والزنج. وَاغتَنَمَ فُرصةَ مَوتِ والي سُوريا فاسْتَوْلَى عَليها وفتَحَ سَائرَ مُدُنِ سَوَاحِلِ الشامِ فَتَعَزَّزَ مُلْكه.

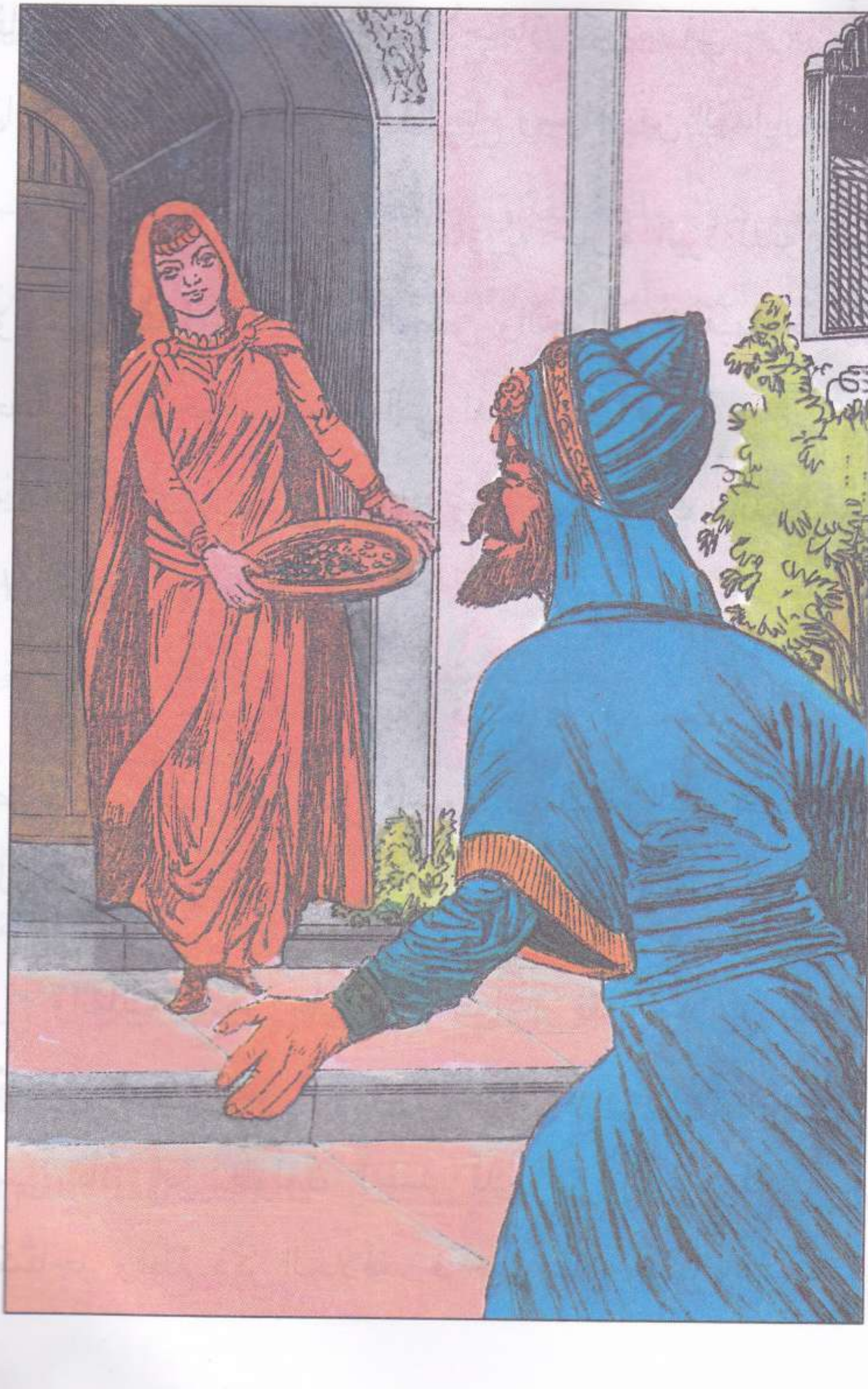
وكانَ ابنُ طُولُون **شَغُوفاً** بالأحجَار الكَرِيمَةِ جَمَعَ مِنها كَمِّيَّاتٍ ومَلأَ خَزَائِنَه بِنَوَادِرِها وكانَ إذا سُئِلَ عَنِ السَبَبِ أجاب:

- إنَّ الدُنيا لم تَدُمْ للإسكَنْدَرِ، حتَّى تَدُومَ لي ولِذُرِّيَّتي من بَعدي. فالجواهرُ فيها ضَمانٌ لعَقِبي عندَما تَنقلبُ الدُنيا، فَيَستَعينُونَ بِها في حَيَاتِهم.

ولَم يَشُذَّ ابنُه خَمَارَوَيْه عن التَقليدِ بَل جَعَلَ هَمَّهُ الاستئثارَ بِأَثْمَنِهَا وَأَنْفَسِهَا ولَم **يبالِ** بكِلفتِها مَهما غَلَتْ.

تناهَتْ أسرارُ خَمَارَوَيْه إلى الخَليفةِ **المُعْتَضِدِ** وقد كان طامِعاً في استِعادَةِ مِصرَ إلى سُلطانِ الخِلافةِ في بغدادَ، فرأَى أن يَقترنَ بابنتِه «قَطْرِ النَدَى»، ويبالغَ بتَقدِيمِ الجَوَاهِرِ والأَحجَارِ الكَرِيمَةِ مَهْراً للسُلطانِ خَمَارَوَيْه. فَأوفَدَ رَجُلاً من **ثِقَاتِهِ** وَحَمَّلَهُ هَدَاياه وخِلَعَهُ وفي مُقدِّمَتِها صُندُوقٌ فيه جَواهرُ من مُختلِفِ الألوانِ والأشكالِ وتُقَدَّرُ بألفِ ألفِ دِرْهم.

وصدَفَ أن بَلَغَ نبأُ وفاةِ الخليفة المعتضدِ وموفَدُه في بعضِ ديارِ السُلطان خَمارويه، فَاضطُرَّ لأن يُقَدِّمَ هَدَايا الخَليفةِ المَيِّتِ إلى العَرُوسِ فأَكرمَتْه ببعضِ الجَوَاهِرِ وعادَ أَدرَاجَهُ بينَما



عادَتْ «قَطرُ النَدَى» وأفرغَتِ الأحجارَ الكريمةَ في خَزَائِنِ أَبيها وَاحتَفَظَتْ بالثيابِ والحَرَائِرِ والمَتَاعِ وسِوَاها مِنَ الهَدَايا السَنِيَّةِ.

وكان بينَ جُملةِ نِسَاءِ خَمَارَوَيْه جَارِيةٌ أثيرَةٌ لَدَيْهِ اسمُها لُؤلُؤةُ وَلَدَتْ له بِنتاً رائعةَ الحُسنِ والجَمَالِ، فوَهَبَها خَمَارَوَيْه حَفْنَةً مِنَ الأحجَارِ الثَمِينَةِ التي لَدَيْه وقال:

- استَعيني بِها في حَياتِك وفي تَربيةِ بِنتِكِ، فالدُنيا غَدَّارَةٌ ولا تُفَرِّطِي بها.

وَصَدَقَ حِدْسُ خمارويه، فبينما هو في مَجلسِ أُنسٍ في قَصرِهِ الذي في سَفحِ جَبل قَاسيون في الشَام الذي شادَهُ لنفسِه بالقُربِ من دَير مَروَانَ، غَافَلَه أحدُ الخَدَمِ وذَبَحَهُ.

وَانقَلَبَ الدَّهْرُ على بَني طُولُون فَقدِ ابتَلاَهُم بِالخَلِيفَةِ **المُكتَفِي** الذي ضَمَرَ لهُم شَرّاً مُستَطِيراً، وهو لا يَستطيعُ أن يَنسَى بأنَّ ابنَ طُولُون أَحمَدَ قَد أَمَرَ بالدُعَاءِ لِنفسِهِ في المَسَاجِدِ وقَطَعَ ذِكْرَ الخِلافَة. فزَحَفَ على مِصرَ وهَزَم هرونَ

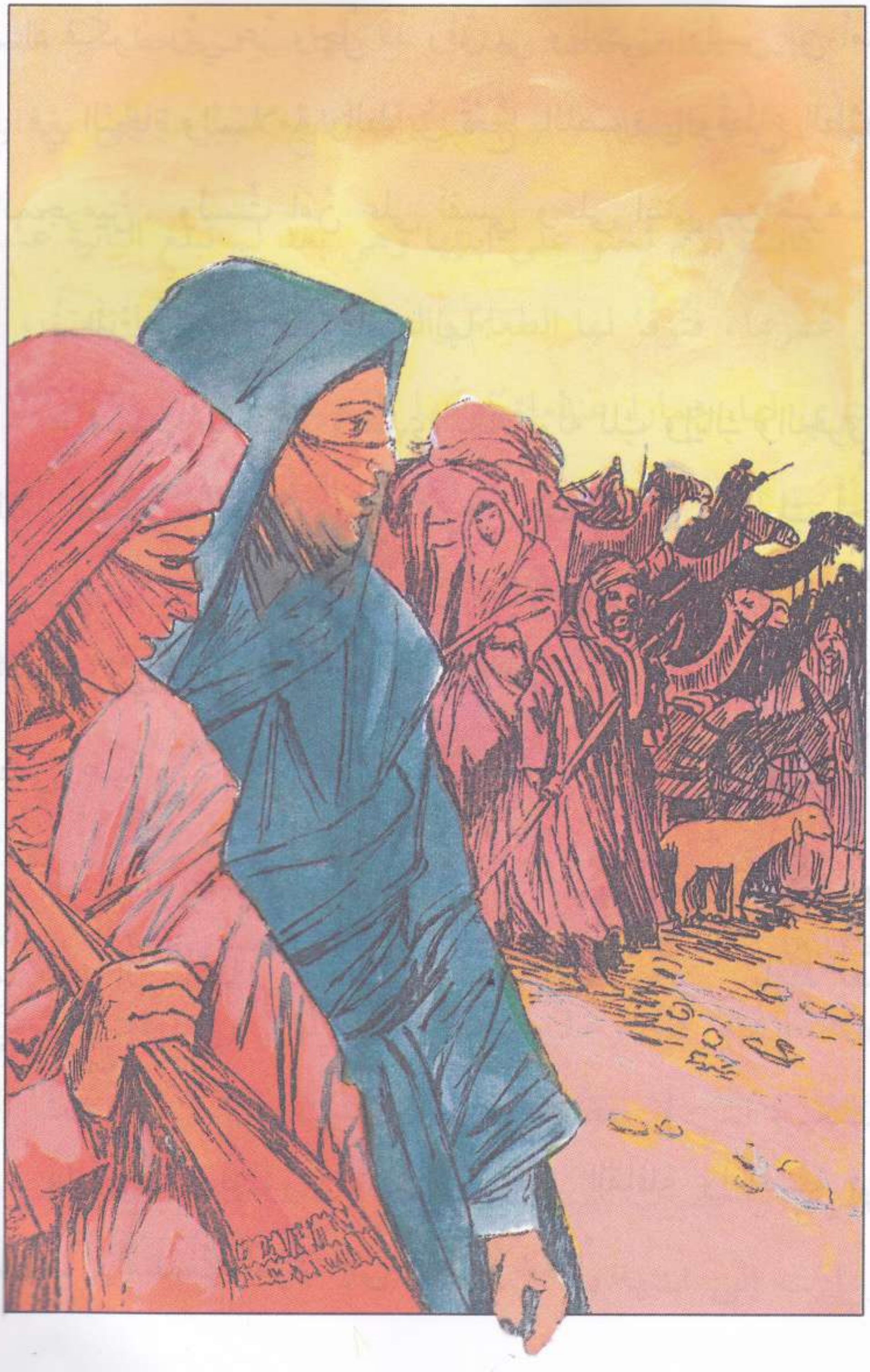
ابنَ خَمَارَوَيْه واختفَتْ آثارُ أبي جَيشِ الوَرِيث. فَصَبَّ الخليفةُ حِقْدَهُ على بَني طُولونَ واجتثَّ شَأْفَتَهم، وَبَالغَ في نكبَتِهم، فأنزلَ بهم كارِثةً بالغَةَ القَسْوَةِ والعُنفِ وأفنَاهُم عن بِكْرَةِ أَبيهم وَصَادَرَ أموالَهم وأَملاكَهم وقَطَعَ خَبَرَهم مِنَ الدُنيا وأَزَالَهُم مِن الوُجُودِ.

وقبل أن يُدْرِكَ جُنْدُ المُكتفي دَارَ لُؤلؤَةَ زوجةِ خَمَارَوَيْه الجَاريةِ، حَزَمَتْ كِيسَ الجَوَاهرِ عَلى جَسَدِها وجَمَعَتْ ما تَيَسَّرَ مِنَ المَال وَتَخَلَّقَتْ بثيابٍ باليةٍ وَحَثَّتِ ابنَتَها على الإِسْرَاعِ في الخُرُوجِ مِنَ الدَارِ قبلَ أن **يُدَاهِمَهُمَا** الجُند، فَأَرْكَنَتَا إلى الفِرَارِ. وتحتَ سِتْرِ الظَلامِ تَسَلَّلتَا مُبتعِدَتَيْنِ عنِ القَصْرِ المُنيفِ مُسرِعَتَيْنِ قَدْرَ استِطاعَتَيْهِمَا حتَّى تَجاوَزَتَا مَنطقةَ الخَطَرِ وَغَابَتَا في **أزقَّةِ** الأحيَاءِ الشَعبيَّةِ المُكتَظَّةِ بالنَاس. وَلَم يَنتبِهْ إليهِمَا أحَدٌ بسببِ زِيِّهمَا **الرَثِّ** والبَالي الذي لا يُلفِتُ نظَرَ أحدٍ، بل يُشيحُ النظرَ عَنهما لأنَّ لا أَحَدَ يَهتَمُّ لِلفُقَرَاءِ والشَحَّاذِينَ. . .

تَابَعَتِ الجَاريةُ لؤلؤةُ وَابنَتُها المسيرَ، وكانتِ الأُمُّ على حَذَرٍ شَديدٍ تَتَجَنَّبُ أن تُثيرَ الشُّبُهاتِ مِن حَوْلها فيُكْتَشَفَ أمرُها وَتَلقَى مَصيراً بائساً. فراحَتْ **تَغُذُّ** السَيْرَ في الحُقُولِ والبَساتِينِ وتَجتازُ القُرى وتَطوي المَسافاتِ مُبتَعِدَةً عَن أعيُنِ الفُضوليِّينَ حتَّى اعتَرَضَها طريقٌ عَامٌّ ترتَادُهُ القَوافلُ في ترحَالِها وسَفَرِها، والناسُ عليه لا يَنقطِعُون لَيْلَ نَهار.

وفي ظَهيرةِ أحَدِ الأيَّامِ عَلَتْ ضَجَّةٌ عَارِمةٌ مِن خَلفِها ورَاحَتْ تتزَايدُ كُلَّما اقتربَتْ مِن الجَاريةِ وابنتها، فالتفتَتْ لؤلؤةُ كَيْ تَستطلعَ الخبرَ وتقِفَ على ما يَجري، فإذا بالغُبارِ قَد سَدَّ الأُفُقَ وفي جَوْفِهِ قافلةٌ تحُثُّ السَّيرَ وَهي تَقتربُ منها شيئاً فشيئاً. فحدَّثَتْ نَفسَها قائِلة:

- يا لُؤلُؤةُ، آنَ أوانُ الحَزمِ والمُخاطَرةِ، فليسَ يَعْقُلُ أن أسيرَ بابنَتي إلى بَغدادَ والمسافةُ أسابيعُ وقد تَطُولُ بنا إلى شُهُورٍ، فلا بدَّ لي مِن أن **أَرفِدَ** القَافِلةَ وأدخلَ في جَوفها وأُرافِقَها فَلَعَلَّها تُريدُ الشامَ وهي منتَصَفُ الطريق، أو تريدُ



بغدادَ فيَكُونَ ربِّي عزَّ وجلَّ قَدْ رَفَقَ بي وبابنتي، وليسَ مِن أملٍ لي في النَجاةِ والسَلامةِ والطريقُ تَعُجُّ باللُصُوص وقُطَّاعِ الطُرُقِ والمجرِمينَ. ولستُ آمَنُ على نَفسي وعَلى ابنتي مِن شرِّهم.

فمَالَتْ إلى ابنتِها وقَالت لها:

- اسمَعي يا بُنَيَّتي وَتَقَيَّدِي بمَا أقولُه لكِ وإيَّاكِ وَالخروجَ عليهِ، **تَصَنَّعي الخَرَسَ**، ولا تَفُوهي بكلمةٍ، وإنْ كَلَّمَكِ أَحَدٌ لا تَرُدِّي عَليهِ إلا بالإِشَارَةِ، فأنا كفيلةٌ بإِنقاذِكِ مِنَ الزَلَلِ لأنَّ الأَخطارَ تَتَهَدَّدُنَا، وأَيَّةُ غَلطةٍ تَصدُرُ عنَّا وتَكشِفُ سِرَّنا سوفَ تَقْضِي عَلينا...

هَزَّتِ الابنةُ برأسِها وَأَشَارَتْ إلى فَمِها وحرَّكَتْ إصبَعها مما عَنَتْه إلى أمِّها: بأنَّ الفمَ قد أُقفِلَ وسُدَّ وليسَ يَلفِظُ بعدَ الآنِ كَلِمَةٍ.

وانخرطَتْ لؤلؤةُ وابنتُها في قِطارِ القافلةِ واختفَتْ في حَشْدِها وأَسلمَتْ أمرَهَا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

كانتِ القَافِلَةُ تقصُدُ بغدادَ، وَلَكنَّها سوف تحطُّ في الشَام أيّاماً للتزَوُّدِ بالطَعَام والمَاء قبلَ أن تُتابعَ مَسِيرَها إلى بَغداد.

كانتِ الأمُ تَحنو على ابنتِها وهي بعدُ لم تبلغِ الثانيةَ عشرةَ من عُمرها، فتُوفِّرُ لها الطعامَ والماءَ وتحملُها عندما تتعبُ، أو تكتري لها حِماراً عندما يُنْهِكُها المَسيرُ. ومرَّتِ الأيامُ تَتْرَى وطُوِيَتِ المسافاتُ وَاجتيزَتِ القُرى والمُدُنُ حتَّى ظهرتِ الشامُ على الأُفُق، فتنفَّستِ الجاريةُ الصُعَداءَ وقالت في نفسِهَا: «لقد سَتَرَنَا الله تَعَالى وبَلَغْنَا نصفَ الطريقِ وبحَمدِه وبإذنه ورِعَايته، وكَرْمَى لهذِهِ الصَبيَّةِ البَرِيئةِ سنبلُغُ بَغدادَ في أَمَانٍ».

وحَطَّتِ القَافِلةُ رِحالَها في خانٍ كَبيرٍ وَسَعَها وَوَسَعَ حَشْدَها بعد أن تناقَصَ طُولَ الطَريقِ وانفَصَل عَنها أخيراً مَنْ قَصَدَ الشَامَ في رِحْلَتِه، فَانزَوَتْ لؤلؤةُ في إِحدَى الحُجَرِ الصَغيرةِ التي لا يُفَضِّلُها النُزَلاءُ للمَبيتِ عَادةً، وَأَسرعَتْ إلى السُوقِ وَأحضَرَتْ شَيئاً مِن الطعامِ وبَعضاً مِن الفَوَاكِه الشامِيَّةِ وعادَت إلى ابنتِها وقَالَتْ لها:

- ليسَ علينا خطرٌ الآن، فإننا الآنَ وَحيدَتانِ ولا أحدَ لنا في هذه الدُنيا قَطُّ؛ وإن سُئِلْتِ قُولي إن وَالدَكِ قد كانَ سَائِساً وقد قتلَه اللُصُوصُ منذ سَنَوَات، ولا تَزِيدِي عَلى هَذا شَيئاً. وإن ألحَّ أحدٌ عليكِ بالسُؤالِ قولي بأنَّكِ كنتِ صَغيرةً ولا تَفقَهينَ شيئاً وإنَّ أمَّك، أنا، هِي التي توفِّرُ لكِ حَاجَاتِكِ. . .

إلتزمَتِ البنتُ بإرشاداتِ أُمِّها طوالَ فترةِ مُكُوثِهما في الشَام. وَانقضتِ الأيامُ وبقي سِرُّ لؤلؤةَ وابنتِها مَخفياً عنِ الناسِ. وكلُّ الذي عَرَفَهُ مَنْ تحدَّثُوا معها أو مَع ابنتِها بأنَّ **المُعيلَ السائِسَ** قد قَضَى منذُ سَنواتٍ على يَد اللُصُوص. وبذلكَ كانَتْ تُثير شفقَةَ الناسِ وتُبْعِدُ عَنها الشُبهاتِ، فلا يَطالُها العَسَسُ المندَسِّينَ بينَ الناسِ يَلتقِطُونَ أخبارَ الخارِجينَ على الخليفةِ أو المطارَدينَ الذين تَطلبُهُمُ السُلطات.

وفي فَجر أحدِ الأيامِ استَكمَلَتِ القافلةُ استِعدادَاتِها، وخَرَجَتْ من الشام فاستَقْبَلَتْها البرِّيةُ الواسعةُ التي تتوسَّط البلدَيْن، وراحَتْ تسيرُ الهُوَيْنا حِيناً وتَغُذُّ السيرَ أحياناً وتتوقَّفُ

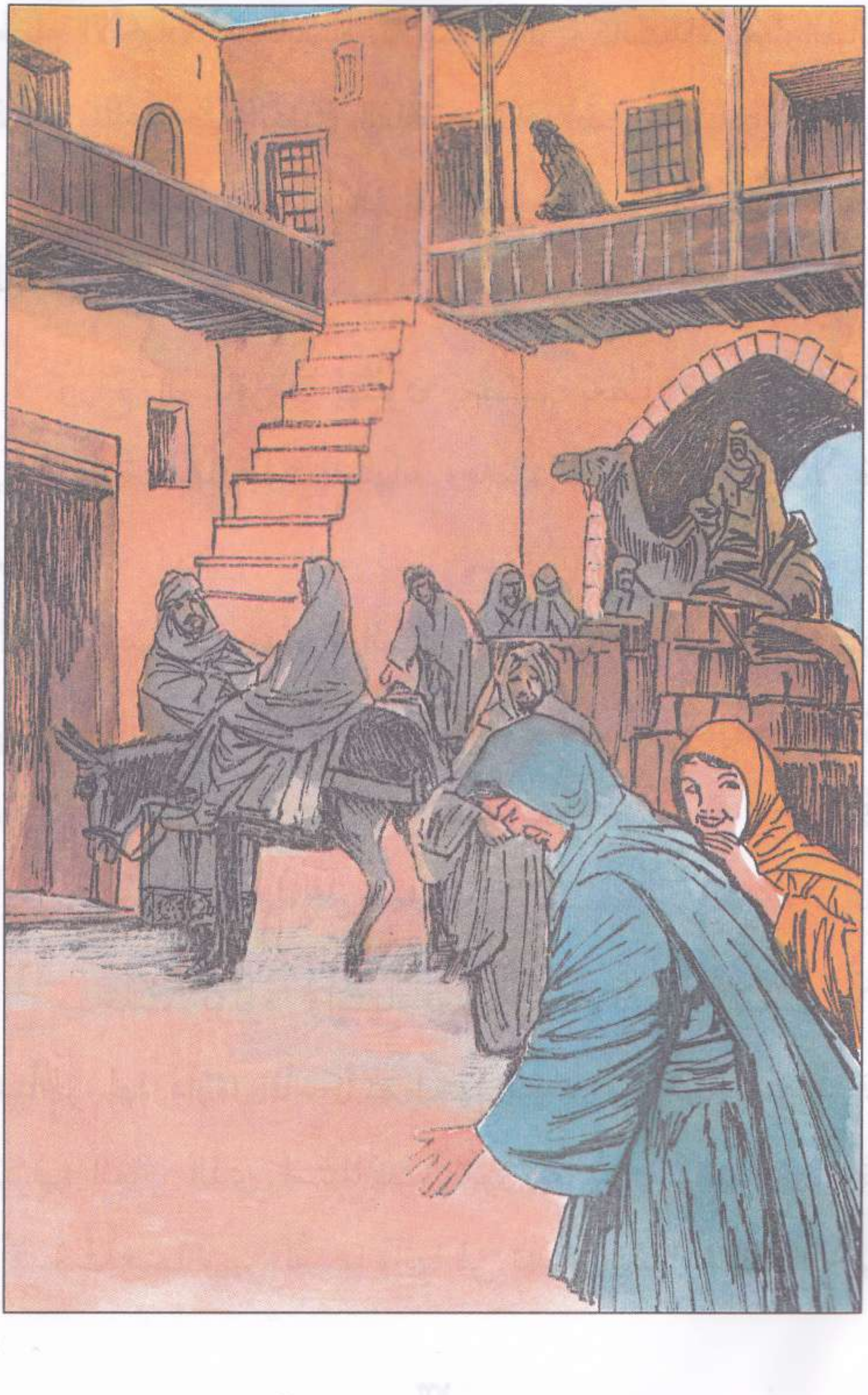
بعضَ الأحيانِ للسِقايةِ أو للاستراحة. وكانَتِ الأيامُ والليَالي تَتَوالى تِباعاً حتَّى بلغتِ القافلةُ بغدادَ فصَاح المنادي يقول:

- هذه بغدادُ، أَعزَّها الله، والحمدُ لله والشُكر له فَقَدْ بَلَغْنَاها سَالمين.

وراحَ المُسَافِرُونَ يُهَنِّئُون بَعضَهُم بَعضاً على السَلامة، وأَمَّا لؤلؤةُ فإنَّها قبَّلَتِ ابنتَها، وقالت لها والدُموعُ تَتَلألأُ في عَينيها:

- لقد رَأَفَ ربُّ العَالَمِينَ بنا وكَتَبَ النجاةَ لنا. يا بُنَيَّتي في بَغدادَ ناسٌ عَرفتُهم أوفياءَ لأبيكِ أَيَّامَ عِزِّه وخَدَمُوه بإخلاص، فلا أَحْوَجَنا الله إليهم. ولكن، إنِ احتَجْنَاهُم فأَمَلي كَبيرٌ أن يُثْبِتُوا على وَفَائِهِم.

ودخَلَتْ لؤلؤةُ وابنتُها بغدادَ مُسْتَتِرَتَيْنِ، وَسَعَتْ لأن تَستأجِرَ لها دارًا، فأَسكنَتِ ابنتَها فيها، وراحَت تَقتصِدُ في صَرْفِ المَالِ الذي استطاعَتِ الفَوزَ به مِن خَزَائنها العَامِرةِ، وأقسَمَتْ بينها وبين نَفسِها بأنَّها لَن تمسَّ الجواهرَ التي تَخُصُّ



ابنَتَها، وإنِ اشتدَّ عَوَزُهَا وَحَاجَتُها، سوفَ تَصرِفُ من الجَوَاهِرِ التي تَخصُّها هي.

وراحتِ الأيامُ تَمضي حتى تَجاوَزَتْ إلى أكثرَ من ثلاثِ سَنَواتٍ ولؤلؤةُ تصرِفُ عَلى ابنتها وتصرِف مِنَ المالِ وَتُوَفِّرُ الراحةَ والسعادةَ لها ولنفسِها.

□ □

وفي مكانٍ ما من بَغدادَ جَمَعَ الأُنسُ **والسَمَرُ** جماعةً من الأَصحابِ، وأخَذُوا يَتَذَاكَرُونَ في أمُورِ الدُنيا حتَّى انتهَوا إلى ما يَعتَقِدُه الناسُ مُفيدًا لأولادِهم.

فسألَ متزَعِّمُ الجَمَاعةِ **والمتصدِّرُ** المجلِسَ وقال:

- ما أجلُّ ما يعتقدُه الناسُ لأعقَابِهم؟

فقال أحدُهم:

- العِقارُ والضِياعُ والأَملاك...

وقال آخرُ:

- المالُ الصَامِتُ.

وقال آخرونَ:

- الجواهرُ الخفيفةُ الثمنِ، فإنَّ بني أُمَيَّةَ سُئِلُوا: أيُّ الأموالِ كانَتْ أَنفعَ لكُم في **نكبتِكم**؟ فقالوا: الجواهرُ الخفيفةُ الثمنِ، كُنَّا نبِيعها، فلا نُطَالَبُ بمعرِفَةِ مصدَرِها، ولا يُتَنَبَّهُ علينا بها، والواحدُ منْهَا أَخَفُّ مَحْمَلاً مِن ثَمَنِها.

نَظَرَ المتَزعَّمُ إلى أحدِ الشيوخِ نِظرَةَ المستهزِئِ وسأَلَهُ:

- وما تقولُ أنتَ يا فلان؟، وقد أبحَرْتَ في أقاليمَ بعيدةٍ وخالطتَ أُناساً غُرَبَاءَ، وربِحْتَ كثيراً وخَسِرْتَ أكثرَ، حتَّى لَيُقَالَ إن الأسفارَ قد مَلَّتْ منك وقَد عَجَنَتْكَ عَجْناً حتَّى رمَتْكَ جِلْداً هزيلاً على عظامٍ تساعِدُك بصُعُوبةٍ بَالغةٍ على السَير؟!...

فتنهَّدَ الشيخُ ونَهضَ واعتَدَلَ في مَجلسِه وجَالَ بنَظَرِهِ على وُجُوهِ الحَاضِرِين **وسَمَّرَه** على وَجْهِ المتزعِّم وقال:

- أَجَلُّ ما يعتقده الناس لأَوْلادِهِم، أدرَكْتُه منذُ أيّامٍ،

عَنَيْتُ الصنائِعَ والإخوان؛ فإنَّهم إنِ اعتقَدُوا لهم ضِياعاً، أَو عقاراً، أو مَالاً صَامِتاً من غيرِ إخوانٍ ضَاعَ ذلك، وَزَالَ...

فَقَالَ المُتزعِّمُ:

- إنَّ وراءَ شَيخِنا لَسِرًّا عَظيماً وقد حَصَلَ فيما أَعتقدُ، منذُ أيامٍ وليسَ منذُ سنواتٍ أو أزمانٍ، وهو حَديثُ الأَثَرِ فيما أَرَى.

فالتفتَتِ الأنظارُ نحو الشيخِ ومَالَتِ الأَعناقُ. وكانَ المتزَعِّمُ وزيراً لأحدِ الأمراءِ والسَلاطين؛ فسَعَلَ الشيخُ سَعْلَةً مَكتُومةَ الآخِرِ وقال:

- الناسُ يعلمُونَ أنِّي صَنيعَةُ أَحمَدَ بنَ طُولُون وقد تَرَبَّى خَمَارَوَيْه ابنُه وخليفتُه بين يَدَيَّ، وقد كانَ أبو جَيشٍ - وهَذِهِ كنيَتُه كما تَعرِفُون - مُولَعًا بالجَوَاهِرِ كما كانَ أبُوه، يَعتقدُه لنفسِه وأولادِه وجَوَارِيه وآلِه.

فمنذُ أيَّامٍ وبينَما أنا جالسٌ في دَاري في ثيابِ الرَاحَة جاءَني بَوَّابي وقالَ:

بالبابِ امرأةٌ تستأذِنُ، وهي في زيٍّ رثٍّ وحالةٍ مُزْرية. فأذِنْتُ لها وفي ذِهني أنها صاحبةُ حاجةٍ وأنا لا أردُّ أحداً عن بَابي فيتركَ في نفسي غُصَّةً. فدخلتِ المرأةُ وقالَتْ وهي تنظرُ إلى ضُيُوفٍ كانوا في مَجْلِسي:

- تُخلي لي مجلِسَك!

فاسْتَغْرَبْتُ طلَبَها وقلتُ في نفسي: إنَّ في الأمرِ سِرًّا. فتفرَّسْتُ في وَجْهِها لَعَلِّي أَتبيَّنُها فَمَا استَطَعْتُ التعرُّفَ عليها، فَحسِبتُها مَبعوثةً من أَحَدِ مَعَارِفي، أَو هِي كريمةُ قَومٍ افتقَرتْ وهي تَستحيي الإفصَاحَ، فأَخْلَيْتُ المَجلِس.

فاقتربَتْ وقالتْ لي:

- أنا فُلانةُ جاريةُ أبي جيشٍ خَمَارَوَيْه بن طُولُون.

فحين قالت ذلكَ، وتَمَعَّنْتُ في صُورتِها، عرفتُها وقد رَسَمَ الإذلالُ خُطُوطَه عَميقةً في مُحَيَّاها، فانفجَرْتُ بَاكياً لِمَا



شاهدتُها عليه، ودعوتُ غِلماني ليُحضِرُوني ما أُغَيِّرُ به حالَها.

فقالت:

- لا تَدْعُ أحَداً، فإني أظنُّكَ دَعَوتَهم لتَغْييرِ حَالي، وأنا في كِفايةٍ والحمدُ لله، ولم أقصِدْك لذلك، ولكن لحاجةٍ هي أهمُّ مِن هَذا، قصَدْتُك وقد كُنْتَ من ثِقاتِ زَوجي ووَالدِه. . .

فقلتُ:

- وما زِلتُ بعضَ صَنائعِ آلِ طُولُون، فما هي حاجَتُكِ؟

فقالت:

- تَعلمُ أَنَّ أبا جيشٍ لم يكُن يعتقدُ لنا إلاّ الجواهرَ، وقد جَرَى لنا ما تعرفُ، وتَشَتَّتْنَا وزالَ عنَّا ما كُنَّا فيه، ورُمينا في بَحرِ الأَقدارِ الظَالِمة، وكان عندي جَوهرٌ قد سَلَّمهُ إليّ،

وَوَهَبَهُ لي، ولابنتِه منّي فلانةُ وهي مَعي هَهُنا. فخشِيتُ أن أُظهِرَه فيؤخَذَ مني، وقد خرجتُ من مِصرَ هاربةً وابنتي مَعي على هيأةٍ زريّةٍ، مستخفية، فسلَّمَ الله تعالى وَوَصَلْنا إلى ههُنا وجميعُ ما لنا سَليم.

وبعدَ أن استُنْفِذَ مني المالَ أَخرجتُ من الجواهرِ شيئاً، قيمتُه على أبي جيش خمسةُ آلافِ دينارٍ، وصِرْتُ به إلى سُوقِ الخزّازينَ «سوق الصاغة» أعرضُه للبَيْعِ، فلم يبلَغْ أكثرَ من أَلفَيْ دِينارٍ.

فقلتُ للصَائغ: هَاتِها.

فلمَّا حَضرَ المالُ قال:

- أينَ صاحبُ المَتَاع؟

قلتُ:

- أَنا هِي.



فقالَ ومَن معهُ:

- ليسَ مَحلُّكِ أن يكونَ هذَا لكِ، وأنتِ لصَّةٌ. فتعلَّقُوا بي وَجَذَبُوني، ليَحمِلُوني إلى صَاحبِ الشُرطة.

فخشيتُ أن أقعَ في يَدِه فأُعْرَفَ، فيُؤْخَذَ مني الجوهرُ وأُطَالَبَ أنا بمالٍ فأُخرجُ الباقي.

فرشوتُ القومَ بدنانيرَ يَسيرةٍ كانت آخرَ ما بقيَ مَعِي، وتركتُ الجوهَرَ وأُفْلَتُّ مِنهم.

فما نِمتُ ليلَتي غمًّا، على مَا ذَهَبَ، وخشيةَ الفقرِ، لأنَّ مالي هذا سبيلُه، فأنا غنيّةٌ فقيرةٌ، فلم أدرِ ما أفعلُ.

فذكرتُ كونَك ببغدادَ وقد تركتَ الخدمةَ بعد مَوتِ السُلطانِ أحمدَ، وما بينَك وبيننا، فجئتُك. فالذي أُريدُه منك جاهَك، تَبذُلُه لي، حتَّى تُخَلِّصَ لي ما أُخِذَ منِّي، وتبيعَ الباقي وتُحصِّلَ لي ثمنَه مالاً، وتشترِي بهِ لي ولابنَتي عقاراً نقتاتُ من غَلَّتِه ونستَتِرُ بهِ.

فقلتُ لها:

- مَنْ أَخَذَ منك الجوهرَ؟

فقالت:

- صائغٌ علاماتُه كذا وكذا ويُكنَّى بأبي كذا في السُوق الفُلانيّ.

فأَحضرتُه بأن أَرسلتُ في طَلَبه مَع بعضِ غِلماني، فجاءَني فاستَخْفَفْتُ بهِ وقلتُ لهُ:

- هذهِ امرأةٌ مِن دَاري، وأنا أَنْفَذْتُها بالمتاعِ لأعرِفَ قيمتَه ولئلا يرانيَ الناسُ أبيعُ شيئاً بدونِ قيمتِه، فيُساءُ الظنُّ بي في غيرِ محلِّهِ، فلِمَ تعرَّضْتُم لها؟

فقالَ:

- ما عَلِمْنا ذلكَ، وعَلى جَرْيِ تَقَاليدِنا، كما تعلمُ، لا نبتاعُ شيئاً إلا بمَعْرِفَةٍ، ولمَّا طالبنَاهَا بذلكَ اضطرَبتْ، فخشِينا أن تكونَ لِصَّة.



فقلتُ له:

- أريدُ الجوهرَ الساعةَ.

فجاءَني بهِ، فلمَّا رأيتُه عرفتُه وكنتُ أنا اشتريتُه لأبي جيشٍ بخمسةِ آلافِ دينارٍ، فأخذتُه منهُ وصرَفْتُهُ.

وقمتُ مِن سَاعَتي مع الجَاريةِ وأخذتُ كلَّ ما لَدَيْهَا مِنَ الجَوَاهِرِ، فجَعَلْتُهُ عُقُوداً وعَرَضْتُهُ على أعيانِ التُجَّارِ وكِبَارِهم، وتلطَّفْتُ لهَا في بَيْعِهِ بأوفرِ الأَثمَانِ، فحَصَلَ لها مِنهُ أَكثرُ مِن خمسينَ ألفَ دِينارٍ.

فابتعتُ بذلكَ لها ضِياعاً وعقاراً ومَسكِناً لائقاً، لتعيشَ بهِ وابنتَها...

فنظرتُ متأَمِّلاً واستغرَقَ ذلكَ منِّي زَمَنًا، فإذَا الجوهرُ لمَّا كانَ معَهَا بِلا صَدِيقٍ، كانَ حَجَرًا، بَل كَانَ سَببًا للمَكْرُوهِ يَجري عَلَيها إنْ خَانَ ضميرَهُ صاحِبُ شُرطةٍ أوْ عَسٌّ أو عَينٌ

لَئيمٌ. ولمّا وجدَتْ صديقًا وفيًا حَصَل لهَا مِنهُ هَذَا المَالُ الجَليل.

فالصديقُ الوفيُّ أفضلُ العَقْد.

فضجَّ المجلسُ بضوضاءَ قطعَهَا الوزيرُ المتزعِّم وقال:

- بالحكمةِ نَطَقْتَ، فلا تَحرِمْنَا حُضُورَك؛ فنحنُ أيضًا مثلُكَ حريصُونَ على أَسرارِ الناسِ وَقدْ علَّمتَنَا التجرِبةُ أنْ نَكونَ بالتَّالي حَريصينَ عَلى كَرَامَاتِهم. وقد علَّمَتِ الدُنيا على جُلُودِنَا.

قاموس الحكاية

صارم: حازم، شديد.
شغوفاً: شديد الوَلَه والحب.
من ثقاته: من المقرَّبين إليه الذين يثق بهم كلَّ الثقة.
يبالي: يهتمُّ.
المعتضد والمكتفي: من خلفاء بني العباس. والاسمان لَقَبَانِ لهما.
داهَمَهُ: فاجأه.
تَغُذُّ السير: تُسرع.
الرثّ: البالي.
اعترضها طريق عام: بمعنى: وصلَتْ إلى طريقٍ عامّ.
أزقّة: ج **زقاق**: شارع ضيِّق.
أرفِدُ القافلةَ: أَنتمي إليها.
تصنّعي الخَرَس: تظاهري بأنك خرساء.
تكتري حماراً: تستأجر حماراً.
المُعيل: الذي يُعيل: يساعدُ على العيش.
السائس: الذي يروِّض الخيول ويعتني بها.
السَّمَر: حديث الليالي.
المتصدِّر: الجالس في صدر المجلس.
النكبة: المصيبة، النازلة، الداهية.
سمَّره: ثبَّته.
رشوتُ القوم: أعطيتهم مالاً على وجه غير شرعي.

أسئلة

١ - في فَهْم الحكاية

١ - مَنْ هو المأمون؟ فَتِّشْ في كتب التاريخ التي بين يديك لتعرِّف عنه تعريفاً بسيطاً موجزاً؟

....

....

٢ - بِمَ عُرفت الدولة التي أسَّسها أحمد بن طولون؟

....

٣ - مَنْ هو خمارَوَيْه؟ وما هو لقبُه؟

....

٤ - بِمَ طمع الخليفة المعتضد؟ وما كانت وسيلته للتقرّب من السلطان خمارويه؟

....

....

٥ - مَنْ هي لؤلؤة؟ وما كانت ثروتُها؟

....

....

٦ – لماذا كان الخليفةُ المكتفي حاقداً على ابن طولون أحمد؟

....

....

٧ – كيف استطاعت لؤلؤةُ أن تُبعِدَ عنها الشبهاتِ لدى هروبها؟

....

....

٨ – ما هي الحيلةُ التي علّمتها ابنتها خلال مسير القافلة؟

....

....

٩ – لماذا اتَّهم الصائغُ لؤلؤةَ بالسرقة؟

....

....

١٠ – ما هي العِبرةُ التي تستنتجُها من القصة؟

....

....

٢ - في اللغة والتعبير

١ – أعطِ معاني المفردات التالية:

الهمَّة: .... العَقِب: ....

يستعينون: .... شاد: ....

حثَّ: .... أشاح النظرَ: ....

الزلل: .... أنهكها السير: ....

الخان: .... الشبهات: ....

٢ - أَلِّف جملاً مفيدة يكون فيها:

- اضطُرَّه إلى...: ....
- وصَدَفَ أن: ....
- بينما هو في: ....
- قبل أن...: ....
- فإذا بالـ...: ....
- ليس يعقل أن...: ....
- إنّ لنا...: ....

٣ - متى نستعمل هذه التعابير البليغة؟

- اجتثَّ شأفتهم: ....
- بالغ في نكبتهم: ....
- أنزل بهم الكارثة: ....
- أفناهم عن بكرة أبيهم: ....
- أركن إلى الفرار: ....
- تطوي المسافات: ....
- تغذُّ السير: ....
- تثير الشبهات من حولها: ....
- تنفَّس الصعداء: ....

- ملَّت الأسفارُ منك: ....

- عجنتك الأسفار عجناً: ....

- تركتك جلداً هزيلاً على عظام: ....

- رسم الإذلال خطوطه عميقة في محيَّاها: ....

- رُمينا في بحر الأقدار الظالمة: ....

٣ - في القواعد

١ - استعمل «راح» فعلاً ماضياً ناقصاً، وفعلاً تاماً في جملتين:

....

....

٢ - دُلَّ على المبتدأ في الجملة التالية: أرسل إليه هداياه في صندوق فيه جواهرُ من مختلف الألوان.

....

٣ - ما هي علامة الجزم في:

لم يبالِ: .... لم يشدَّ: ....

لم ينزلوا: .... لم يكنْ: ....

٤ - أعرب ما يلي: وَهَبَهَا سيِّدُها حفنةً من الأحجارِ الثمينةِ. - أفناهُم عَن بكرةِ أبيهم.

سِلسِلة حِكايات السَّمَر

تَغُوصُ في التَّاريخِ، تُحيي شَخصيَّاتِهِ، في سِيَاقٍ قَصَصِيٍّ مُمْتِعٍ رَاعَيْنا فيه قُدرَةَ الوَلَدِ على الاستِيعَابِ، لُغَةً ومعلوماتٍ، لإيصاله إلى استِنتاج العِبَرِ التي يتحرَّكُ الأشخاصُ بوَحْيِها. وقد رَبَطْنَا كلَّ قِصَّة بواقِع التحصيل المدرسيِّ فألْحَقْنَا بها قاموساً للمفرداتِ وأسئلةً متنوِّعةً تحرِّك الذهنَ، وتدفعُ الولدَ إلى التفتيش والتقصِّي.

تتضمّن هذه السلسلةُ العناوينَ الآتية: